التعليم ووسائله في الآثار العربية الاسلامية

الدكتور صلاح حسين العبيدي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

من المعروف ان بلاد وادي الرافدين كانت مهد الحضارات ، ويعود الفضل في ذلك الى السومريين والبابليين والآشوريين في تحقيق منجزات حضارية كثيرة أسهمت وبشكل فعّال في تطور البشرية فكرياً وتقنياً • ففي العراق القديم وعلى وجه الخصوص في بلاد سومر كان مولد كثير من تلك المنجزات المتمثلة في معرفة العراقيين القدماء لاقدم وسيلة للتدوين والتي عرفت بين المختصين بالكتابة السومرية ، حيث استطاع بواسطتها الاقدمون حفظ تاريخهم ومنجزاتهم على مر العصور ، ونقل ذلك التاريخ الى الاجيال اللاحقة ، ويمثل اهتداء العراقيين القدماء الى فكرة التدوين انجازاً كبيراً سرعان ما انتشر في أرجاء واسعة من منطقة الشرق الادنى القديم •

ولقد أولى العراقيون القدماء أهمية كبيرة الى تعليم أبنائهم الكتابة والقراءة ، وسرعان ما ازدهرت المدارس في المدن السومرية والاكدية والبابلية ، حيث كان يتعلم فيها الابناء الخط المسماري ومختلف المواضيع الدراسية ، وكانت مادة الكتابة تتألف أساساً من قلم مدبب من القصب ولوح أو رقيم طيني ولهذا سميت الكتابة في اللغة السومرية بـ « بيت الالواح » é - dub - ba وسمي التلميذ بـ « ابن بيت الالواح » dumn - é - dub - ba ، وكان على رأس المدرسة مديرها أو ناظرها والذي سمي في السومرية « اوميا » Ummia [1] •

هذا وقد لعبت المدارس العراقية القديمة دوراً كبيراً في عملية حفظ واستنساخ التراث القديم جيلا بعد جيل وتخرجت منها أعداد كبيرة من النساخ الذين كانت تقع على عاتقهم مهمة التدوين في مختلف شؤون الحياة اليومية •

ولاشك في ان المعرفة بالقراءة والكتابة قد استمرت بين القبائل العربية في الجاهلية[٢] . والواقع ان ما يذهب اليه البعض من الباحثين من ان سكان الجزيرة العربية كانوا لا يعرفون القراءة والكتابة هو كلام فيه كثير من الاجحاف وبعيد كل البعد عن الواقع ، صحيح ان نسبة كبيرة من سكان الجزيرة كانوا بدواً ، غير ان هناك نسبة غير قليلة منهم كانت تعرف القراءة والكتابة ، وبخاصة الذين أقاموا في المدن مثل الحجاز ومكة ، والمعروف ان سكان هذه المدن كانوا يشتغلون بالتجارة ، وهذه المهنة كما هو معروف تتطلب من أصحابها معرفتهم القراءة والكتابة ، أما اليمن وبطرا وتدمر والحيرة وغيرها فلا بد ان أهلها كانوا يعرفون القراءة والكتابة مثل اخوانهم أهل مكة والحجاز .

وكانت الكتاتيب منتشرة في هذه المدن يتعلم فيها الصبيان القراءة والكتابة ، والمكتب هو الموضع الذي يعلم فيه الأولاد[٣] ، وكان يطلق على المعلم الذي يعلم الصبيان بالمكتب[٤] . وقد ذكر الأصفهاني[٥] ان الشاعر عدي بن زيد قضى مرحلة من طفولته في أحد الكتاتيب .

ولما جاء الاسلام وصف الله تعالى شيوع الامية بين العرب بقوله : « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانون من قبل لفي ضلال مبين[٦] » . لذا اهتم العرب بتعلم القراءة والكتابة ، ولا غرو فهي وثيقة الصلة بالدين ، أقسم به الحق في كتابه الكريم في سورة القلم « ن والقلم وما يسطرون[٧] » وشرفه عندما أضاف تعليمه الى نفسه اذ يقول في سورة العلق : « إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم[٨] » .

وقد حث الرسول (ص) على طلب العلم حتى جعله فريضة على كل مسلم ، جاء في الحديث الشريف « طلب العلم فريضة على كل مسلم[٩] » .

وكذلك حث على التعليم والتعلم بقوله « خيركم من تعلم القرآن

وعلمه[١٠] » . وقال صلواته عليه وسلم : « العلماء ورثة الأنبياء . ان الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وانما ورثوا العلم . فمن أخذه أخذ بحظ وافر[١١] » .

ومما يدل على اهتمام الرسول (ص) بنشر القراءة والكتابة بين المسلمين ان أسرى بدر افتدوا أنفسهم بتعليم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة[١٢] .

وقد اتخذ الرسول (ص) عدداً من أصحابه لكتابة القرآن الكريم .

وسار الخلفاء الراشدون على هدى الرسول (ص) في طلب العلم ونشره ، ويذكر عن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) انه خاطب ولاته بتعميم يقول فيه : « أما بعد فعلموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر » . ومما يذكر عنه أيضاً انه عين رجالا أرسلهم الى الأنصار لتعليم المسلمين قراءة القرآن ومبادىء الكتابة .

ويمكن أن نستشف من بعض الروايات ان التعليم الالزامي كان معروفاً في الدولة العربية ، فقد ذكر ان الخليفة عمر بن الخطاب (رض) لقي أعرابياً فقال له هل تحسن أن تقرأ القرآن ، قال الاعرابي نعم ، قال عمر فاقرأ أم الكتاب ، يقصد سورة الفاتحة ، فظهر عجز الاعرابي عن قراءتها فأسلمه عمر الى الكتّاب ليتعلم القراءة والكتابة .

وقام المسجد بدور فعال في النشاط العلمي ، والمعروف ان المساجد كانت في العصر الاسلامي الأول مراكز للتدريس والتعليم حيث انها لم تكن دور عبادة فقط ، بل كانت دور علم أيضاً فيها تقام الصلوات وفيها يفصل بين الناس وفيها تعقد حلقات الدراسة والتدريس ، وعلى العموم فقد أدى المسجد مهمته العلمية منذ تأسيس أول مسجد في الاسلام[١٣] .

لم تذكر المصادر ان المعلمين قد أخذوا الأجر لقاء التعليم ، وانما كان

المعلمون يرجون ثواب الله تعالى من بث العلم بين أفراد الامة .

وكانت عناية الامويين بالقراءة والكتابة وبالتعليم بصورة عامة كبيرة ، وكان الخلفاء من أكثر الناس اهتماماً بالتعليم ونشره ، ومما يذكر عن الخليفة عمر بن عبدالعزيز انه قام بحملة على الامية ، كما كان الحجاج بن يوسف الثقفي يقوم بتعليم الصبيان بالطائف .

وفي العصر الأموي ظهر المؤدب ، وكان هؤلاء المؤدبون يعطون دروساً خاصة لأبناء الخلفاء والامراء والاغنياء ، وكان هؤلاء يحتفلون بأبنائهم عند اكمال احدهم دراسته ولهم في ذلك تقاليد معروفة ، فهم يركبونه على فرس ويمرون به في الشوارع ويرمون عليه اللوز تكريماً له[١٤] .

ونستطيع من خلال نصائح الآباء الى المؤدبين أن نستدل على المنهج الذي يجب أن يتبعه المؤدبون في التعليم ، فقد كتب عمر بن عبدالعزيز الى مؤدب ولده سهل :

« أما بعد فأني إخترتك على علمٍ مني بك لتأديب ولدي ، فصرفتهم اليك عن غيرك من موالي وذوي الخاصة بي ، فخذهم بالجفاء فهو أمعن لاقدامهم ، وترك الصحبة فان عادتها تكسب الغفلة ؛ وقلة الضحك فأن كثرته تميت القلوب ، وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان ، وعاقبتها سخط الرحمن .... وليفتح كل غلام فيهم بجزء من القرآن يتثبت في قراءاته ، فاذا فرغ تناول قوسه ونبله ، وخرج الى الغرض حافياً فرمى سبعة أرشاق ، ثم انصرف الى القائلة ...[١٥] » .

ومما يدل على انتشار التعليم في العصر الاموي ما ذكره الحموي[١٦] « ان المعلم المعروف بالضحاك بن مزاحم كان في مكتبه ثلاثة آلاف صبي ، ولهذا كان يحتاج الى أن يركب حماراً يتنقل به بين ابهاء المكتب ليشرف بنفسه على سير الدراسة » .

ويمكن أن نستشف من هذا الخبر ان الكتاتيب كانت لها اصول وأنظمة ، ويدير هذا النظام مشرف عام وتليه مجموعة من المساعدين الذين يعهد لكل واحد منهم مجموعة من الصبيان يأخذ على عاتقه تعليمهم وضبطهم والاستماع اليهم ومتابعة حفظهم لما يكلفهم به ، وربما هناك تخصص في بعض أعمال المساعدين ، وهذا التخصص يدخل في اطار أعمار الصبيان أو مراحل دراستهم وفنون علومهم .

أما في العصر العباسي فقد ازداد الاهتمام بالتعليم ، وقد شهد العصر المذكور تقدماً كبيراً في هذا الميدان ، وكان الخلفاء في مقدمة من اهتم بنشر العلم بين المواطنين ، وبلغ من حبهم للعلم أن وجدنا الخليفة المأمون يطالب عقب انتصاره على ميخائيل الثالث بتسليمه جميع المخطوطات اليونانية الخاصة بالفلسفة ولم تترجم الى العربية بعد تعويضاً لخسارة الحرب[١٧] . فالتزود العقلي بالعلم يعني سلاحاً جديداً يضاف الى أسلحة الحرب .

والى جانب المسجد والمكتب ، ظهرت المدرسة والحلقات في العصر العباسي ، فكان التلاميذ يترددون عليها بعد أن يختموا القرآن ويتعلموا مبادىء القراءة والكتابة والعلوم الدينية الأولية ، ويفدون الى المدارس أو الحلقات لتعلم العلوم الاخرى ، والتخصص في نوع منها أو التوسع في بعضها والوقوف على أخبار العرب وأيامهم ورواية الشعر والسيرة والتاريخ والحساب والفلك والعلوم الاخرى والرياضيات ، وتمثل هذه المرحلة مرحلة متقدمة في التعليم بعد الدراسة الاولية في الكتاتيب .

ومن أشهر مدارس بغداد في العصر العباسي المدرسة النظامية التي أنشأها الوزير نظام الملك والمدرسة المستنصرية التي شيدها المستنصر بالله سنة ٦٣١هـ/١٢٣٤م ، وكانت جامعة بمعنى الكلمة ، ومن أشهر مدارس القاهرة بعد الأزهر دار الحكمة واطلق عليها أيضاً دار العلم ، وفي الشام شيد نورالدين

زنكي كثيراً من المدارس في دمشق وحلب وحمص ، وفي شمال أفريقيا انشئت مدرسة في جامع الزيتونة • كما انشئت في فاس بالمغرب مدرسة القرويين •

وكانت هذه المدارس والجامعات مراكز اشعاع علمي وثقافي ، وتعتبر جامعة المستنصرية ببغداد أول جامعة عربية في العالم الاسلامي عنيت بدراسة علوم القرآن والسنة النبوية والمذاهب الفقهية وعلوم العربية والرياضيات ومنافع الحيوان وعلوم الطب والمنطق وعلم الفلك والتاريخ • وكان المنهج الدراسي منهجاً غنياً كما كانت طريقة التدريس تعتمد على المناقشات التي كانت تثار بين الطلبة وأساتذتهم ، لذلك نظر الاوربيون الى الجامعات العربية الاسلامية على انها الصورة المثالية للجامعات عامة ، فلا غرابة ، اذا رأينا الاوربيون يقلدونها فيقتبسون عن هذه الجامعات نظامها وطرق تدريسها والاجازات العلمية التي كانت تمنحها هذه الجامعات لطلابها(١٨) •

كما قامت المستشفيات بدور فعّال في مجال التعليم أيضاً ، فكانت هذه المستشفيات مدارس عليا للطب ففي المستشفيات العربية وحول الاسرة البيضاء ، يجمع الطبيب بين العلوم النظرية والتطبيقية ، وكان الطلبة يرافقونه عند زيارته للمرضى ليقفوا على التشخيص السريري للامراض والحالات المرضية التي وقفوا عليها في دراستهم النظرية •

وكانت مجانية التعليم كاملة في الجامعات العربية الاسلامية ، يتناول فيها الطلبة مرتباتهم الشهرية لسد حاجاتهم ونفقاتهم الخاصة ، وقد أخذت المؤسسات الثقافية في قطرنا هذا النهج وبذلك استطاعت أن تحقق للطالب المجالات التي يستطيع فيها أن يواصل دراسته في مختلف المراحل دون أن تكون العوائق المادية سبباً من أسباب عزوفه عن الدراسة ، وهي خطوة متقدمة في مجال التعليم •

أما مواد الكتابة فقد كانت متنوعة ، فقد كتب القدامى على الحجر والخشب والفخار والعظم والكتان والجلد ، على ان أهم مادة استخدمت البردي والورق •

وقد أدت معرفة العرب بصناعة الورق الى الاهتمام بالكتابة والى تطوير الخط العربي • يقول الجاحظ[١٩] : « لولا الخطوط لبطلت العهود والشروط والسجلات والصكاك وكل اقطاع ، وكل انفاق ، وكل أمان ، وكل عهد وعقد ، وكل جوار وحلف ، ولتعظيم ذلك ، والثقة به والاستناد اليه كانوا يدعون في الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة تعظيماً للأمر ، وتبعيداً من النسيان » •

وتفيد رواية نادرة بأن عمر بن أحمد بن العديم لما بلغ السابعة من عمره طرح في المكتب بين يدي معلمه فجعل يعلمه الكتابة والخط ، فكتب « بسم الله » ففعل ابن العديم مثله فكان مثار اعجاب معلمه[٢٠] .

وفي الآثار العربية الاسلامية صور تمثل جوانب متعددة من التعليم ، فهي توضح لنا طرق التدريس وأساليب الدراسة وموادها وأشخاصها وأزياء الاساتذة والمعلمين والطلبة ، وهي معلومات لا يمكن للباحث في هذا الميدان أن يستغني عنها ، ففي تصويره من مخطوط كتاب الترياق لجالينوس مؤرخ من سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩م محفوظة في المكتبة الأهلية بباريس صفحة عليها ثلاثة تصاوير صغيرة تمثل اليمنى منها استاذاً او طبيباً يستمع الى تلميذ يقرأ بكتاب مفتوح ، وتمثل الوسطى طبيب آخر يقرأ بكتاب ، أما الثالثة فتوضح طبيباً مع تلميذ يمسك كتاباً ، ويلاحظ في الصورة الى جانب ذلك من أدوات الكتابة ما يعرف بالوقت الحاضر بـ « الرحلة » التي كان الطلبة والاساتذة يضعون عليها كتبهم وكراريسهم • وتبدو على هؤلاء الاساتذة أو الاطباء عمائم ضخمة وهي ملفوفة عدة طيات وتمتاز بكورتها العظيمة وعذبتها التي تنسدل على الصدر ، وهذا مما يؤيد النقول من أن عمائم الأطباء تمتاز بكبرها وتعدد طياتها •

وفي تصويرة اخرى (شكل ١) من كتاب العقاقير لديسقوريدس مؤرخ من سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م محفوظة في متحف طابقسراي في استانبول ، والتصويرة توضح درساً في الطب الخاص بالعقاقير ، وهي من العراق ثم هي تهمنا كثيراً من حيث اعتبارها مستنداً هاماً لتوضيح الملابس والأزياء الخاصة بالأساتذة والتلاميذ ، فيبدو الأستاذ أسفل ظله معقودة تستند الى أعمدة وجلس فوق كرسي تنزل قدماه على متكأ لين توفيراً لراحته ، أما بالنسبة للطالب فقد توفرت له راحته بجلوسه على متكأ لين تبدو طياته متعددة من أثر ثقل الجالس عليه ، ومن الواضح

ان التلميذ قد جلس في مستوى أوطىء من مستوى استاذه احتراماً لمنزلة الاستاذ ، ويبدو على الطالب الاهتمام الرائد من نظراته وتأدبه ، وفي وضع يده اليسرى فوق صدره ، ويرتدي كل من الاستاذ والتلميذ زياً واحداً من العمائم ، وهي ذات لون أبيض ملفوفة على الرأس وتتألف من ثلاث دوائر وطية عرضية تزينها أشرطة زخرفيـــة .

أما ملابس البدن ، فيظهر على الاستاذ جبة من غير فتحة أمامية سوى فتحة ضيقة عند الرقبة وأكمام طويلة متسعة ، ويزين الكمين شريطان عرضيان عليهما زخرفة هندسية ، وأظهرت لنا فتحة الكمين ان الجبة مبطنة بقماش أبيض .

شكل رقم (١)

أما التلميذ فيرتدي هو الآخر جبة حمراء اللون لها فتحة من أمام ، ولها أكمام طويلة واسعة يزخرفها شريطان مستعرضان عند الكتف بزخرفة هندسية ، تشبه زخرفة الجبة التي يرتديها استاذه والجبة مبطنة بقماش أبيض كما هو واضح من فتحتى الكمين •

وهذه التصويرة توضح لنا ان التعليم الفردي أو الخاص كان معمولا به زمن الدولة العربية ، وقد يكون هذا الاستاذ من المؤدبين الذين كان الخلفاء والامراء والاغنياء يستعينون بهم لتدريس أولادهم دروساً خصوصية ، أو ان هذه التصويرة تمثل ضرباً من الدراسات العليا التي تكون فيها اعداد الطلبة قليلة حتى يستطيع الاستاذ الانصراف كلياً الى مناقشة الطالب ومعرفة المسائل الدقيقة التي يعرض لها والتفصيلات المتعلقة بموضوع تخصصه كما هي الحال في الدراسات العليا في وقتنا الحاضر •

وفي تصويرة (شكل ٢) اخرى من نفس المخطوط ترجع الى الموصل غالباً ، وهي تمثل طالبين بيد كل منهما كتاب ، فالطالب الامامي يتقدم وهو حامل كتابه بيمينه ويساره في نصف مفتوح وكأنما يتأهب للدرس والتحصيل ، ويغطي رأسه عمامة ذات طيات رقيقة ويرتدي في الوقت نفسه دراعة بفتحة مستديرة عند الرقبة وذات أكمام طويلة تصل الى الرسغين • والدراعة طويلة تصل الى أعلى القدمين ويحلى الكم الايمن شريط عرضي ذهبي اللون به زخرفة مضفورة •

أما الطالب الخلفي فيبدو غير حليق اذ تبدو لحيته مطلقة ، والكتاب الذي في يده اليمنى يعطي صورة من يتأهب للتحصيل ، أما العمامة التي يرتديها فهي من نفس العمائم السابقة سواء أكانت من حيث لفات طياتها أو نوع نسيجها ، وتظهر على هذا الطالب جبة ذات لون ازرق بأكمام طويلة واسعة تصل الى الكمين وعلى الكم شريطان مستعرضان عليها زخرفة تشبه الكتابة باللون الذهبي •

وهذه الصورة كما يقول اتنكهاوزن[٢١] تمثل عملية التعليم والاجازة

شكل رقم (٢)

بنسخ كتاب الأستاذ الذي كتبه طلابه ، وهذا واضح من اشارة ديوسقوريدس بالكلام ، ومن الطريقة المحترمة التي تقدم بها تلميذاه نحوه ، وهما يحملان نسخة من كتاب الاستاذ ، يتأملان في أن يسمح لهما بتقديمها اليه وتلقي بيانه بالموافقة على ذلك ليستطيعا مقابل هذا أن يقوما بتدريس ذلك الكتاب » .

وفي تصويرة اخرى من مخطوط مقامات الحريري نموذج آخر من أساليب التعليم في العصر العباسي ، حيث تعرض التصويرة المذكورة مشهداً يمثل درساً لاستاذ يشرح لتلاميذه ، ويمسك كل واحد منهم كتابه المفتوح ، وتستقر خلف صورة الاستاذ وتلاميذه مكتبة منفذة في هيئة دولاب حائطي له طرفان مغلقان وبقي الجزء الأوسط من المكتبة مكشوفاً صفت فيه من الأسفل مجموعة من الكتب بطريقة قائمة ورأسية تبدو منها كعوبها بينما صفت الكتب العليا بطريقة عرضية بعضها فوق بعض .

ويعرض لنا الواسطي مثالاً آخر لمكتبة (شكل ٣) تضم استاذاً مع تلاميذه ، وقد جلس الاستاذ بينهم كأنه واحد منهم وراح يقرأ ويشرح لهم ما في الكتاب والتلاميذ يصغون الى استاذهم والى قوله وقد ظهرت خلف الجميع مكتبة واجهتها مفتوحة ومقسمة الى عدد من المربعات صفت فيها مجموعة من الكتب بعضها فوق بعض بطريقة افقية .

وهاتان الصورتان تؤكدان بأن المدارس العربية كانت تضم مكتبات تحفظ فيها الكتب التي يمكن أن يرجع اليها الاستاذ أو الطالب عند الحاجة وفي متناول أيديهم .

ومن صور التعليم الفريدة الممثلة في المخطوطات العربية صورة (شكل ٤) محفوظة في متحف نيويورك[٢٢] ، وهي تمثل مدرسة يتصدرها شيخ أو استاذ وقد تحلق حوله مجموعة من التلاميذ ذكوو واناث وفي يد كل منهم كتاب مفتوح يتأملون فيه ، وفي يمين الاستاذ أو الشيخ عصا طويلة ، وتشير يسراه الى أحد

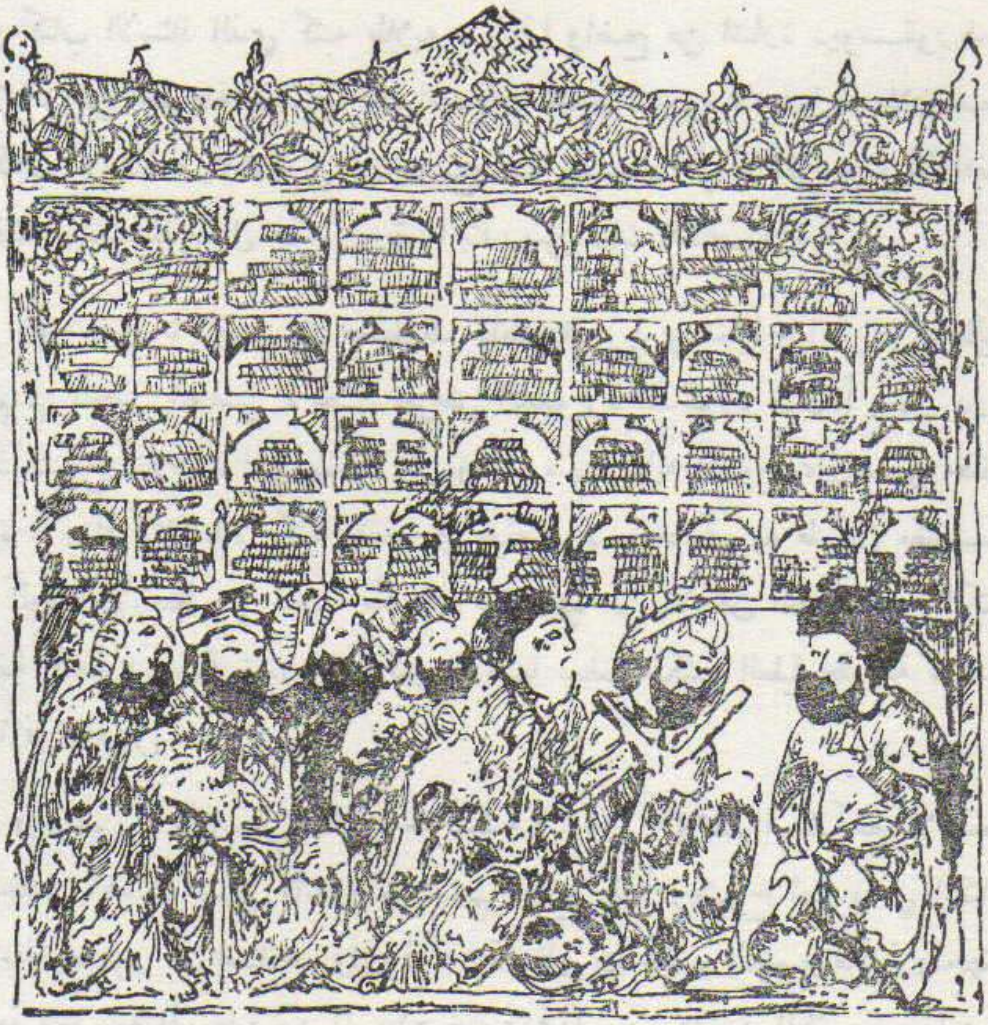

شكل رقم (٣)

التلاميذ القريبين كأنما يعطي أمر للشروع بالقراءة • وقد ركز الفنان على الشيخ فأظهره في الصورة في حجم يميزه بالكبر والوضوح عن بقية الطلبة الموجودين ، وتعلو هامته عمامة ضخمة تخرج من وسطها عصا طويلة ، وقد ارتدى الاستاذ جبة بأكمام طويلة تصل الى الرسغين •

أما ملابس التلاميذ من الذكور فان أغطية الرأس التي يرتدونها مؤلفة من عمامة كبيرة تخرج من وسطها عصاً كما هي الحال بالنسبة لعمامة الاستاذ كما ارتدى كل تلميذ لباساً خارجياً أقرب ما يكون الى الدراعة[٢٣] ، وقد استخدم كل

منهم نوعاً من الأحزمة يعرف بالبند[٢٤] ، وذلك لتثبيت الدراعة على الجسم •

أما بالنسبة الى ملابس التلميذتين فقد ارتدت كل منهما لباساً موحداً للرأس مؤلفاً من عصابة تتدلى على كتفيهما ، في حين اتخذن للبدن ملابس مؤلفة من قباء[٢٥] منتوحاً من أمام ، وهو من النوع الطويل الفضفاض ، وقد ظهر من تحته ثوب أقرب ما يكون الى الدرع • ويبدو ان الأزياء كان متفقاً عليها عندما يدخلون الى قاعة الدرس • ومن الملاحظ في هذه التصويرة ان الاناث يجلس جنباً الى جنب مع الذكور دون حجاب أو ستارة تفصل بينهم ، وهذا يؤكد ان التعليم المختلط كان موجوداً ومعروفاً في ذلك العصر • ويلاحظ في الصورة أيضاً وجود أنواع متعددة من وسائل الكتابة ، فبالاضافة الى الكتاب نلاحظ الدواة وهي موضوعة على الأرض في أماكن متفرقة بين الطلبة ، يضاف الى ذلك وجود حاملة للكتب التي تعرف بـ « الرحلة » • كما أظهرت الصورة أيضاً حافظة كتب مطروحة على الأرض بين اثنين من التلاميذ •

شكل رقم (٤)

وفي مخطوط مقامات الحريري صورة تمثل مدرسة ، يتصدر مجلسها معلم وحوله مجموعة من التلاميذ واقفين وجالسين ويمسك معظم هؤلاء التلاميذ بألواح تبدو عليها آثار كتابة ، ونلاحظ على اللوح الذي يمسكه التلميذ الثاني الى يسار المعلم تاريخ المخطوط في عبارة «عمل في سنة تسع عشر وستماية» (شكل ٥)•

وقد ارتدى الاستاذ عمامة كبيرة لها عذبة تسدل على الكتف الأيسر ، أما التلاميذ فيرتدي قسم منهم غطاء للرأس مؤلفاً من عمامة ذات طيات متعددة ، في حين وضع القسم الآخر على رؤوسهم ما يعرف بالقلانس ، أما ملابس البدن التي يرتدونها فيبدو انها مؤلفة من قميص يصل في الطول الى الركبتين تقريباً وتحته سروال طويل يصل الى أعلى القدمين •

شكل رقم (٥)

وخلد لنا الواسطي أيضاً شكل المكتب وطريقة التعليم ثم ألواح الكتابة ، وذلك في صورتين جاءتا لتوضحا جملا من المقامة السادسة والاربعين من مقامات

الحريري ، ففي التصويرة الاولى (شكل ٦) نرى أبا زيد السروجي في مهنة معلم ، وقد أمسك بيده عصا وجلس فوق تخت ، بينما جلس مجموعة من الصبية على أرض الغرفة وفي أيديهم ألواح الكتابة وقد وقف أحد الطلبة وهو يعد أرقاماً ، في حين أمسك تلميذاً آخر بمروحة الخيش السقفية التي كانت شائعة الاستعمال في العصر العباسي والتي ظلت تستعمل في العراق الى وقت قريب .

أما التصويره الثانية (شكل ٧) فنشاهد فيها السروجي وقد تقمص شخصية المعلم وجلس الى جانبه الحارث وامامهما مجموعة من الصبية جلسوا على أرض الغرفة وهم ينظرون اليهما مستغربين ، بينما وقف أحدهم وقد وضع كلتا يديه أمام صدره كأنه يطلب شيئاً أو يستفسر عن شيء ، في حين مسك الآخر حبلاً مربوطاً بمروحة الخيش التي أشرنا اليها في الصورة السابقة .

وقد ظلت هذه التقاليد وما رافقها من شكل المكتب ومن أدوات خاصة بالكتاتيب وما التزم به من طرق تعليم الصبيان مستمرة حتى وقتنا الحاضر .

وتعكس لنا صورة اخرى (شكل ٨) في مخطوط محفوظ في متحف نيويورك[٢٦] نموذجاً آخر لمدرسة تضم مجموعة من التلاميذ ذكوراً واناثاً ويبدو من غياب الاستاذ أو المعلم أن الطلبة في حالة استراحة أو فرصة ، فقد أمال اثنان منهما رأسيهما جانباً واثنان آخران يمارسان لعبة رياضية ، حيث تبدو في يدي احدهما كرة يحاول رميها الى زميله الذي يقابله وهو يرفع كلتا يديه ويضعها أمام وجهه كأنه يحاول مسك الكرة أو صدها وهناك تلميذاً آخر انشغل في ورقة بسطها أمامه وقد بدا يخطط أو يرسم عليها ، أما الثالث فقد فتح كتابه الا انه انشغل عنه برؤية اللاعبين أيضاً وظهرت في الزاوية العليا من الجهة اليمنى فتاتان احداهما مالت برأسها يميناً نحو الفتاة الثانية كأنما يقرآن في كتاب واحد فتحته احداهما في حجرها .

واذا رجعنا الى الأزياء الممثلة في هذه التصويرة فاننا نجد قسماً من التلاميذ

شكل رقم (٦)

شكل رقم (٧)

يرتدي العمائم في حين يرتدي القسم الآخر قلانس ذات عصا • أما ملابس البدن فتبدو انها من النوع المعروف بالدراعة •

وبالنسبة الى ملابس التلميذتين فمن الملاحظ ان كلاً منهما تضع خماراً يشتمل على رأسها ويحيط برقبتها ، أما ملابس البدن فتتألف من القباء ويظهر هنا وهو مفتوح من أمام وذلك تحت ملابس داخلية أقرب ما تكون الى القمصان•

ويلاحظ في الصورة من أدوات الكتابة الدواة وهي مطروحة على الارض ، كما نلاحظ أيضاً حاملة الكتب ، بينما ظهر الى الجهة اليسرى (حب) للماء موضوع على كرسي •

شكل رقم (٨)

وتعكس لنا هذه التصويرة حقيقة واضحة وهي ان المدارس في ذلك الوقت لم تقتصر مهمتها على التعليم فقط بل تزود الطلبة اضافة الى ذلك معلومات اخرى كالرسم مثلا كما تعمل على بناء أجسامهم بناءً سليماً وقوياً انطلاقاً من مبدأ العقل السليم في الجسم السليم •

وتوضح صورة[٢٧] عاشرة (شكل ٩) درساً في الطب ، وهي تمثل استاذاً

يجلس على منصة مرتفعة ذات سلالم ، وقد أمسك بيده اليمنى عصا طويلة مشيراً بها الى صورة توضح شكل العين وأقسامها وأجزاءها وقد انصرف يشرح لمجموعة من الطلبة جلسوا أسفل المنصة يحيطونها ويستمعون الى الاستاذ بأنتباه ، ويلاحظ ان قسماً منهم يسجلون في كراريسهم أقوال مدرسهم الطبيب وملاحظاته ، وان معظم الطلبة قد ركزوا اهتمامهم الى المواضع التي يؤشر اليها الاستاذ .

ولابد هنا من الاشارة الى دور المرأة في ميدان التعليم ، فقد ساهمت هي الاخرى في هذا الميدان ليس لكونها متعلمة فقط بل معلمة أيضاً فنجدهن يقمن بتعليم البنات في شتى حقول المعرفة والتربية والتهذيب والكلام ، ويأتي في مقدمة ذلك تعليمهن قصائد الشعر وتهذيبهن بمكارم الاخلاق[٢٨] .

وقد عكس لنا الواسطي صورة (شكل ١٠) حية تمثل بعض حوادث المقامة الخمسين التي تتضمن توبة السروجي ولزومه المسجد ، فرسم مسجداً في البصرة ، عبر عنه بالمنبر والمحراب ، وأمام المنبر تقف واعظة أو شيخة تلقي محاضرة علمية أو موعظة دينية على مجموعة من الفقهاء ، وقد جاءت أقوال هذه العالمة على لسان السروجي في المقامة المذكورة على الشكل الآتي « انضى الرواحل ، واطوي المراحل ، حتى قمت هذا المقام فيكم ولا من لي عليكم اذ ما سعيت الا في حاجتي ولا تعبت الا لراحتي ولست أبغي لعطيتكم بل استدعي أدعيتكم ، ولا أسأل أموالكم بل استنزل سؤالكم ، فادعوا الله بتوفيقي للمتاب ، والاعداد للمآب ، فأنه رفيع الدرجات مجيب الدعوات ...[٢٨] .

وقد اتخذ المعلمون في الكتاتيب أساليب معينة في تأديب التلاميذ مثل استخدام « الفلقة » بالنسبة للتلاميذ الذين لا يلتزمون بالنظام ويخالفون التقاليد المعروفة ولا يؤدون واجباتهم التعليمية التي يكلفون بها من قبل المؤدبين ، وقد ظلت هذه الوسيلة مستخدمة الى وقت متأخر وفي معظم أقطار الوطن العربي .

وقد وصلت الينا صور فريدة تمثل استخدام هذه الطريقة في التأديب وذلك في تصويرة (شكل ١١) للمصور محمد قاسم محفوظة في متحف المتروبوليتان بنيويورك والصورة تمثل منظر مدرسة في الهواء الطلق وتحت الاشجار ، وفي مقدمة هذا المنظر تلميذان ، يبدو انهما منشغلان بواجباتهما المدرسية ، والى الخلف وتحت الشجرة يظهر معلماً وهو يضرب تلميذاً في الفلق ، وقد أمسك بطرفي العمود تلميذان آخران ، والى الجهة اليسرى من التصويره يظهر

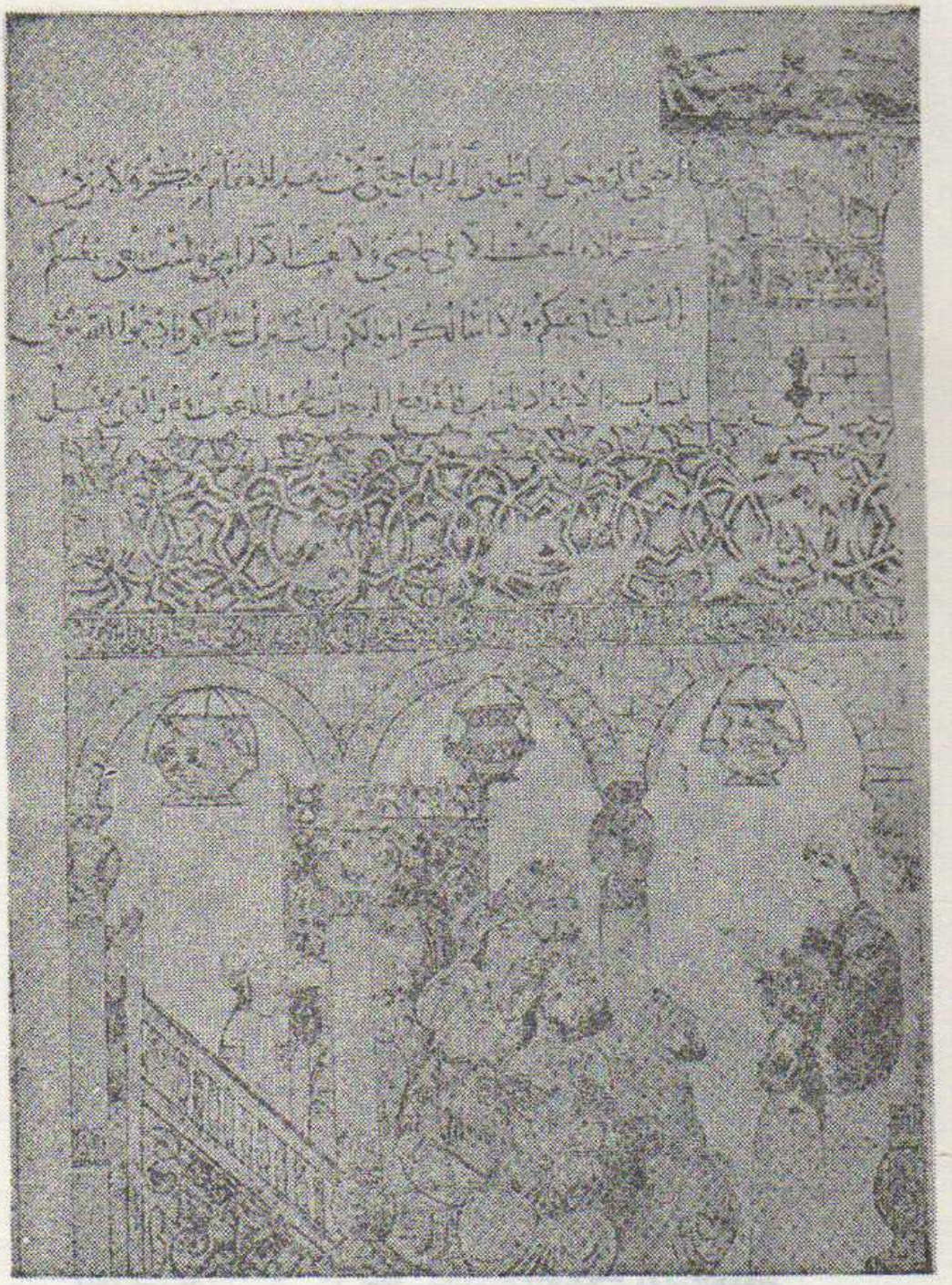

شكل رقم (١٠)

شـيخ كبير لعله معـلم آخر أو أن يكون والد التلميذ يحث المعـلم على تأديب ابنـه[٢٩] .

شكل رقم (١١)

وهكذا نخرج من هذه الرحلة العلمية الموجزة بصورة واضحة المعالم بيّنة القسمات عن التعليم ووسائله وأساليبه وأدواته عبر مرحلة مزدهرة من عصورنا الذهبية ، حيث كان العالم العربي مركز اشعاع لجميع العالم • ان هذه النماذج تمثل قدرة الامة التي استطاعت أن تحقق لها منهجاً علمياً وتضع نظاماً جامعياً في في كيفية التعليم وتهيىء للمتعلمين الوسائل الكفيلة باستمرار تعلمهم لتدفعهم الى أخذ العلم والتزود به ، وقد استطاعت من خلال ذلك ان تؤكد وجودها الحضاري والثقافي في وقت كان فيه العالم بعيداً عن العلم والثقافة •

ان هذه الامة قادرة الآن على أن تستمر فيما بدأت به اسلوباً ومنهجاً لتأخذ دورها في البناء الحضاري وتؤكد اصالتها في التعليم والتعلم •

الهـوامش :

١ ـ حول المدرسة السومرية انظر :
Kramer, Shhool days .. Maseum Monographs, Philadlphia (949) .

٢ ـ البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر :
فتوح البلدان • طبعة بيروت (ص ٦٦٠ ـ ٦٦٣) •

٣ ـ العسكري : ابن هلال العسكري :
كتاب التلخيص في معرفة أسماء الاشياء • تحقيق د• عزة حسن (دمشق ١٣٨٩) مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ج ٢ ص ٧٠٥ • وانظر ابن منظور جمال‌الدين محمد بن بكر • لسان العرب مادة « كتب » •

٤ ـ ابن منظور : مادة « كتب » •

٥ ـ العلوجي : عبدالحميد : محو الامية بين الماضي والحاضر • مجلة المعرفة العراقية • العدد (٢) تشرين الاول ١٩٧٨ م ص ١٥ •

٦ ـ قرآن كريم : سورة الجمعة الآية ٢ •

٧ ـ قرآن كريم : سورة القلم الآية ١ •

٨ ـ قرآن كريم : سورة العلق الآية ١ •

٩ ـ انظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر ج ١ ص ٨ وكنز العمل للمتقي الهندي (حيدر آباد) ج ١٠ ص ٧٥ •

١٠ـ انظر الجامع الصغير للسيوطي (مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٥٤) ج ٢ ص ١٢ •

١١ـ انظر : « الترغيب والترهيب » للمنذري (دار احياء التراث العربي) ج ١ ص ٩٤ ، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر ج ١ ص ٤٣ •

١٢ـ ابن سعد : محمد بن سعيد الواقدي : الطبقات الكبرى ٢٢/٢ •

١٣ـ شلبي : أحمد : تاريخ التربية الاسلامية (القاهرة ١٩٦٠ م) ص٥ ، وانظر عجيل : حسن : الحياة العلمية في مدينة بلنسية (مؤسسة الرسالة) ص ٢٠٥ •

١٤ـ الاصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القريشي الاموي الكاتب• الاغاني ١٠١/١٨ •

١٥ـ صفوت ، أحمد زكي : جمهرة رسائل العرب (مطبعة البابي الحلبي بمصر) ج ٢ ص ٣٦٨ •

١٦ـ الحموي : شهاب‌الدين ياقوت بن عبدالله : معجم الادباء المعروف بارشاد الاريب الى معرفة الاديب (مطبعة هندية بالموسكي بمصر ٩١٢٧) ص٢٧٢•

١٧ـ هونكه : سيجريد : فضل العرب على اوربا (شمس الله على الغرب) ترجمه وحققه وعلق عليه الدكتور فؤاد حسنين (دار النهضة بالقاهرة) ص ٢٨٠ـ٢٨٢ ٠

١٨ـ هونكه : المصدر السابق ص ١٠٧ ٠

١٩ـ الجاحظ : ابي عثمان عمرو بن بحر ٠
كتاب الحيوان (مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر) ج ١ ص ٦٩ ٠

٢٠ـ الحموي : المصدر السابق ج٦ ص ٣٦ ٠

٢١ـ اتنكهاوزن :
فن التصوير عند العرب : ترجمة د٠ عيسى سلمان وسليم طه (مطبوعات وزارة الاعلام العراقية) ص ٧٠ ٠

٢٢ـ الرفاعي : أنور : تاريخ العلوم عند العرب (دار الفكر ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) شكل ٥ ص ٤٣ ٠

٢٣ـ الدراعة : جبة مشقوقة المقدم : ابن سيده المخصص (طبعة بيروت) ج ٤ ص ٣٦ ٠

٢٤ـ البند : عبارة عن شريط من الحرير الاصفر أو من القطن المصبوغ الملون ٠
انظر : ماير الملابس المملوكية ٠ ترجمة صالح الشيتي ٠ مراجعة وتقديم الدكتور عبدالرحمن فهمي ٠ نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٧٢) ص ٣٩ ٠

٢٥ـ القباء : ثوب واسع شديد الضيق من الاعلى يمر مرتين فوق البطن ويمتد تحت الذراع ٠ انظر دوزي : المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب ترجمة الدكتور أكرم فاضل (مطبوعات وزارة الاعلام العراقية ١٩٧١ م) ص ٢٩٠ ٠

٢٦ـ الرفاعي : المصدر السابق : شكل ١ ٠

٢٧ـ المصدر السابق ٠

٢٨ـ ابن بسام : محمد بن أحمد :
نهاية الرتبة في طلب الحسبة ٠ تحقيق حسام الدين السامرائي ٠ مطبعة المعارف (بغداد ١٩٦٨) ص ١٦٣ ٠

٢٩ـ حسن : زكي محمد :
أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية (مطبوعات كلية الآداب والعلوم ببغداد ١٩٥٦) شكل ٨٩٣ مكرر ٠